

القيمة الفنية للمفردات والتراكيب في أدب جبران خليل جبران
دراسة تحليلية

**An analytical study of the artistic value of the Vocabulary and
Compositions in the literature of Gibran Khalil**

د-يخى*

د-جاويد خان**

Abstract

Indeed when a writer does something creative whether it be a poetry or a prose, he/she chooses the best words and the most appropriate composition. The words or vocabulary been examines in this selection and selection of synthesis are tested and undergoes a critical process.

In this research study, the literature of the 20th Century renowned writer Jabran Khalil has been adapted from the same perspective that how he chose the best and proper words in his literature. Further in this creation, his words and composition convey the extent which translate his ideas.

Key words: Vocabulary, Compositions, Literature, Gibran Khalil.

*المحاضر، قسم العلوم الاسلامية، بجامعة سوات

**المحاضر، قسم العلوم الاسلامية، بجامعة سوات

مقدمة:

مما لا شك فيه أن اللغة هي المادة الأولى التي تشكل الفنون الأدبية، وفيها يقدم الأديب عصارة مشاعره وزبدة أحاسيسه، ومن خلالها يعرض أفكاره، وعواطفه، ولن يتحقق هذا إلا إذا اتخذ شكلا وقالبا لفظيا ملائما، ومما لا شك فيه أيضا أن لكل أديب طريقة يعرض بها أفكاره، وأسلوبا يتعامل مع اللغة بمفرداتها وتراكيبها، فمهمتنا في هذا المقال، هو: الكشف عن خصائص لغوية، وقيم فنية التي اختارها جبران لصناعة الجمل والتراكيب، وتميزها بشخصيته، وثبتت مكانته الأدبية، وتمنح له مكانا مرموقا، بين الأدباء الآخرين. كذلك من خلال هذا سنقف على طبيعة اللغة بمفرداتها وتراكيبها وقوتها وضعفها، وعلاقتها بجانب الفكري للأديب، وعلى مدى نجاحه في نقل الفكرة إلينا بصورة تقنعنا وتؤثر فينا بما فيها من قوة أو انفعال.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة في إبراز الخصائص الفنية للمفردات والتراكيب التي اختارها جبران خليل لتصوير أفكاره تصويرا فنيا أدبيا من ناحية، ومن ناحية أخرى - وهي أهم من الأولى- في محاولة تطبيق القضايا البلاغية على النصوص الأدبية النثرية، فإن قواعد هذا العلم يمكن أن تجمع في صفحات فتحفظ وتفهم، أما الأهم والأصعب فهو التطبيق العملي والنظر المتعمق في النص المدروس وتحليل تركيبه لمعرفة دلالاته وإيحاءاته، وإبراز محاسن صياغته.

أهداف البحث:

يمكن ذكر أهداف البحث في النقاط التالية:

1. الكشف عن خصائص لغوية وقيم فنية التي اختارها جبران لصناعة الجمل والتراكيب.
2. محاولة تطبيق القضايا البلاغية على النصوص الأدبية النثرية عند جبران.
3. إعطاء الفرصة للقارئ والباحث في مجال الأدب والبلاغة للاستفادة من مثل هذه الدراسات البلاغية التطبيقية لاحتوائها على الأمثلة والشواهد البلاغية المشروحة المقرونة بالتحليل والتعليل في مسائل علم البلاغة.

أسئلة البحث:

ما هي قيمة المفردة عند جبران وكيف وظفها لتقديم أفكاره وآراءه في أدبه النثري؟
ما هي قيمة التراكيب عند جبران في صياغة كلامه؟ سواء أكان التركيب في صورة الجملة الفعلية أو الاسمية؟

إلى أي مدى يوجد التوافق والتوازن بين ألفاظه التي صاغ منها كلامه وبين الإيحاءات والدلالات التي أراد جبران من خلالها بث أفكاره وآرائه؟
خطة البحث:

إذا أردنا أن نتعرض لإبراز قيمة المفردات والتراكيب عند جبران، فسوف نيسر في هذا الاتجاه تدريجياً، فأولاً سنتعرض للمفردات بإبراز قيمتها على مدى دقة الاختياري في انتقاء الألفاظ الملائمة والمفردات الموحية، لأن اختيار اللبنة الأساسية لأي عمل أدبي أمر لا بد منه، وبقدر انتقاء الأديب لهذه اللبنة الأساسية، تظهر قوة عمله الأدبي، وانفعاليته، وجاذبيته، ويرفعه إلى المستوى الفني المطلوب، ونلمس أهمية هذا الأمر في قول "حازم القرطاجني" حيث يقول متحدثاً عن أهمية اختيار الألفاظ الملائمة، وتجنب الألفاظ الرديئة في تأليف النص الأدبي. "كما أن الصورة إذا كانت إصباغها رديئة، وأوضاعها متنافرة، وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها، وإن كان تخطيطها صحيحاً، فكذلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف."¹

فمعرفة بناء التراكيب، وقوالب الصيغ التي تدرك بنا جميع الاهتمامات النفسية لدى الكاتب. فإذا استوفى الدارس هذا الجانب نظر في المستوى الثاني وهو فهم المعاني المجازية، أو التضمنية، أو الالتزامية، التي تؤدها العبارة بطريقة الاستعارة، أو تشير إليها، أما ثالثاً، وهو قيمة كل جملة في إيضاح المعاني تعد أساساً لازماً للدرجة السامية من درجات النقد الأدبي.²

وهذا ما يقودنا إلى النظر أولاً في الألفاظ ثم في التراكيب وما تحمله من دلالات، وإيحاءات، وإشعاعات، ثم الأساليب والأبنية الأخرى التي تكمل الصور الأدبية. لأجل ذلك قسمنا الموضوع إلى مبحثين، فنتعرض في المبحث الأول لمناقشة الخصائص التي تتعلق بالمفردات، وفي المبحث الثاني نتعرض لمعالجة الخصائص التي تتعلق بالتراكيب.

المبحث الأول: القيمة الفنية للمفردات:

اشتهر جبران خليل جبران بين معاصريه بأسلوبه المتميز، وسببه الدقة التامة في

اختيار الكلمات والتراكيب. يقول حنا الفاخوري في هذا الصدد: إن لكل شيء في آثار جبران سر وسحر. للفظه المفردة، والعبارة المركبة، لتقطيع العبارة، وتآلف الحروف، للموسيقى المتصاعدة من كل حرف وكل لفظه وكل عبارة. وجبران من أقدر من اختار لفظه تعبيرية، وركب جملة خيالية موسيقية، وهو لاشك ساحر بلفظه وعبارته ومجمل كتابته.³

وقد ذهب بعض الأدباء إلى أن جبران قد تأثر بأسلوب الكتاب المقدس، ويمكن أن يثبت هذا بما يوجد في كتابته من أسلوب وعظي عاطفي متميز، وبذلك صرحت الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي حيث تقول: "إن تأثر هذا الأسلوب (أسلوب جبران) مباشرة بأسلوب الكتاب المقدس مسألة أثبتتها كثير من الكتاب حتى غدت معرفة شائعة. فذلك الانسياب التوراتي المنسرح، وذلك الإيقاع المتميز، ونبرة التعبد والأدعية، والتكرار العاطفي للعبارات التعجبية، وإضافة إلى الموقف الوعظي التلقيني، جميعاً تذكر بالكتاب المقدس، وقد كان جبران كذلك الوريث المباشر وأحد أوائل الكتاب المسيحيين الذين تأثروا بشدة بأسلوب الكتاب المقدس".⁴

من المعروف أننا لا نقصد من دلالة الألفاظ الدالة على عناصر الصورة معانيها المباشرة فقط، بل نريد بها الكشف عما يكون للألفاظ من ظلال وإيحاءات مكتسبة من كثرة الاستعمال والتداول، تتداعى في ذهن المتلقي في أثناء القراءة، وتكسب الصورة مزيداً من الإيحاء والتفصيل والإثارة. ولذلك نستطيع أن نقول إن الألفاظ المفردة تمتلك - ومن قبل أن توضع في بناء لغوي- طاقات إيحائية خاصة، يمكن إذا ما فطن إليها الكاتب ونجح في استغلالها أن تقوي من إيحاء الوسائل والأدوات الشعرية الأخرى وتثريه. فحين أراد جبران، أن يصور إحساسه بحتمية الموت، وبكونه مدادا لطموحات الإنسان المسيطرة على حياته، وبكونه محطاً أمنياتها المحيطة بقلبه، أورد من الألفاظ ما تملك كل هذه المعاني في أتم صورة، وأكمل وجه. ونلمس من خلالها ملامح واضحة تدل على إبداعه، وحسن انتقاءه ودقته في اختيار الألفاظ الموحية. وهذا ما نجده في النص التالي، حيث يتحدث فيه عن كيفية حلول الموت القابض على كل شيء.

يقول جبران: "إذا سقطت أوراق الورود بسكون، وأظلمت الكواكب في جو السماء، وتكسرت الأمواج على الصخور الجرداء، وانطفأ شعاع الشفق الأحمر وتوارى في السحاب، فذلك هو الموت".⁵

من الملاحظ في هذا النص أن كلمات مثل: سقطت- أظلمت- تكسرت- انطفأ- وتوارى، توحى كلها بمعاني الفناء الشامل، الممتزجة بإيحاءات الانكسار والتبدد، من ناحية، ومن الظلمة وانتهاء نور الحياة من ناحية أخرى. فكلمة سقطت توحى بالانتهاء والفناء وتأتي بعدها كلمة أظلمت لتوحى بحلول الظلمة بعد نهاية نور الحياة، ثم تأتي بعد ذلك كلمة تكسرت بما توحى بالهلاك والتحطيم، والانكسار والتبدد، وتقابلها، كلمة انطفأ وتوارى، لتدل مرة أخرى على حلول الظلمة، وجثومها بانطفاء شعاع الحياة ونورها. ولعل ما في هذه الأفعال سقطت، أظلمت، تكسرت، انطفأ توارها، وتكرارها على صورة الماضي، من دلالة قوية، وإيحاء بالغ إلى أبعد المدى على حتمية الموت، وزوال الحياة وفنائها. وهكذا استطاع جبران أن يدرك -بفطرته اللغوية والشعرية المرهفة- تلك الإيحاءات التي تؤديها هذه الألفاظ، واستغلها استغلالاً موفقاً في التعبير عن الإحساس بفناء الحياة وزوالها بعد حلول الموت.

وكذلك استطاع أن يحقق نوعاً من انسجام وتقارب معنوي بين أمور طبيعية متباعدة بجمعها في رسم صورة فنانة نور الحياة بحلول ظل الموت. وهكذا نلاحظ الدقة في اختيار الألفاظ، والكلمات المؤكدة إحساس الملتقي بالموت، وما يحدث بعده، فإنه سيلجأ إلى التفكير في حلول الخريف بعد سقوط الورود من أغصانها، وفي مدى انفعاليته على مشاعره وعواطفه، ثم يطبق هذا التصوير على قدوم موته، وما سيحدث بعده، وإنه سيتصور أن السماء كم تفقد بهجتها والأرض رونقها بتظلم الكواكب، وغياب شعاع الشفق، كل هذه المناظر والمشاهد- التي شخصها جبران-، تؤكد إحساس القارئ بزوال نور الحياة، بعد هبوب رياح الموت.

ومن النماذج البارزة لاستغلال القيمة الإيحائية للكلمات نقرأ النص التالي لجبران، الذي يعتمد فيه اعتماداً يكاد يكون أساسياً على إيحاءات الألفاظ وإشعاعاتها النفسية الرحيبية، متحدثاً عن حياة ريفية، وعن الصباح الذي شهده فيها، ثم رسم لنا بريشة قلمه، قائلاً: "ها قد جاء الصباح يا حبيبي، وداعت أصابع اليقظة أجفان النيام، وفاضت الأشعة البنفسجية من وراء الليل، أزال غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي وترنمت أجراس الكنائس، وملأت الأثير نداء مستحيا، معلنة بدأ صلاة الصباح، فأرجعت الكهوف صدى زينها، كأن

الطبيعة بأسرها مصلية".⁶

فأبرز ما يجذب نظر القارئ وسمعه في هذا النص الرائع تلك الألفاظ المشعة الموحية التي تأنق الكاتب في اختيارها، بحيث تشيع جوا من الإحساس الرحيب بالجمال والطهر والنقاء والبراءة، وتجمع كل هذه الألفاظ- داعبت، فاضت، أصابع اليقظة، القرى المتكئة بهدوء وسكينة، صلاة الصباح، الأشعة البنفسجية، عزم الحياة ومجدها، ترنمت، نداء مستحبا، تتوارد على الإحساس بالجمال البريء الوديع الفضي لمجيء الصباح في الريف، إلى الحد الذي يمكن معه القول بأن جبران يتحدث عن قدوم شخص خيالي مجرد، بث الحركة والحيوية في الطبيعة من جديد، فقد قامت بأسرها لتتفانى في استقباله وتعظيمه أكثر مما يتحدث عن صباح حقيقي وجماله وروعته. ولا شك أن للكلمات دور أساسي في رسم هذه الصورة الرائعة. ويبرز جمال هذه الألفاظ وتتأكد إيحائيتها عند ما نقرأ نصا آخر يعرض تصويرا للحياة في المدينة، ومجيء الصباح فيها، معاكسا للصورة السابقة، وتظهر كراهية المشهد من خلال الكلمات التي اختارها لرسم هذه الصورة.

يقول جبران: "ها قد جاء الصباح، يا حبيبتى، وانبسبت فوق المنازل المكردسة أكف النهار الثقيلة، فأزريحت الستائر عن النوافذ، وانفتحت مصاريع الأبواب، فبانَت الوجوه الكالحة، والعيون المعروكة، وذهب التعساء إلى المعامل، وداخل أجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف، كأنهم منقادون قهرا إلى عراق هائل مهلك".⁷

إذا كانت المفردات في النص السابق قد كونت جوا من الإحساس الرحيب بالجمال والطهر والنقاء والبراءة، فنلاحظ هنا -في هذا النص- أن المفردات- المنازل المكردسة، أكف النهار الثقيلة، الوجوه الكالحة، العيون المعروكة، التعساء، الملامح المنقبضة، القنوط، الخوف- قد خلقت جوا من الإحساس الرهيب بالخوف والبهتس واليأس والقنوط، ومما يؤكد هاتين الرؤيتين هو أن جبران كان أدبيا وموهوبا ومرهفا، ومبدعا في توظيف الكلمات، وتسخيرها في معان مجازية مؤثرة، تفتتح بها أفقا لغويا واسعة أمام القارئ، كما يشير إلى تأثير جبران بالكتاب المقدس.

المبحث الثاني: القيمة الفنية للتركيب عند جبران خليل جبران:

تشكل التركيب النحوية دورا أساسيا في بناء اللغة الشعرية والثرية وتكوينها، ومن خلالها تفتح على القارئ القدرات المكونة التي يملكها الأديب، حيث يعرف سيطرته على اللغة وعناصرها من التركيب وأنواعها المختلفة، وأخضاع هذه العناصر في سبيل بث الأفكار والمشاعر، حسب رؤيته ودرايته. وكذلك من ضمن هذه التركيب المختارة لدى الكاتب يتسهل للباحث أن يتطلع على نفسية الأديب وانفعاليته. لأن الإيحاءات التي تحملها الجملة الفعلية مثلا تختلف عما تحمله الجملة الإسمية، وما يوحى إليه الحذف يختلف عما يدل عليه الذكر، كذلك جميع عناصر التركيب من التوكيد والتكرار والنداء والاستفهام والقصر والوصل والفصل لها إيحاءات وظلالات تختلف من عنصر إلى عنصر، ومن تركيب إلى تركيب. فمن خلال التعرض للنص الأدبي يكشف الباحث عن ما تتركه هذا التنوع في التركيب من أثر على النص الأدبي، وما توحى به من ودالات.⁸

وأثناء قراءة جبران نلاحظ بروز سمات معينة يتسم بها النص لديه، وتتجلى هذه السمات بوضوح خلال تحليل النص تحليلا نحويا وبلاغيا في ضوء توظيف مقاييس النقد الحديثة والرؤى الجديدة. وسأحاول الوقوف على دقة الكاتب في اختيار التركيب المتعددة، وتفضيل بعضها على بعض، مع الكشف عما يوحى إليه ذلك الذي اختاره الأديب، وفضله على التركيب الأخرى، وسأكتفي هنا بتناول بعض الخصائص التركيبية وقيمتها الفنية التي استخدمها جبران أثناء حديثه عن قضية الموت والحياة.

الجملة الفعلية والجملة الإسمية:

الجملة الفعلية هي نمط من أنماط جمل اللغة العربية تختلف عن الأنماط الأخرى في دلالتها، وهي: الجملة التي يدل فيها المسند على التجدد، أو التي يتصف فيها المسند إليه بالمسند اتصافا متجددا، وبعبارة أوضح هي التي يكون فيها المسند فعلا لأن الدلالة على التجدد إنما تستمد من الأفعال وحدها.⁹

ونجد نصيبا وافرا لهذا النمط في أدب جبران خليل حيث يعتمد النص عنده على الجملة الفعلية اعتمادا واضحا، ولعل هذا يفضي بالنص إلى نوع من الحركة والتجدد والاستمرار تمنحها إياه الأفعال بمضارعها، فتقابل هذه الحركة منه ما تمور به نفس الكاتب الحزينة ن اضطراب وانفعال. ويتجلى هذا الاضطراب، والحركة المستفاد من

الجملة الفعلية في هذا النص الذي يتحدث فيه جبران عن الموت المحيط بشعبه في سوريا أيام المجاعة ، حيث يقول:

"في ظلام الليل ينادي الأخ أخاه والأب أبناءه، والأم أطفالها، وكلنا جائعون متضورون، أما الموت فلا يجوع ولا يعطش، فهو يلتهم أرواحنا وأجسادنا، ويشرب دماءنا ودموعنا، ولكنه لا يشبع ولا يرتوي. في الهزيع الأول من الليل ينادي الطفل أمه قائلاً: يا أماه أنا جائع. فتجيبه الأم قائلة: اصبر قليلاً يا ولداه.

وفي الهزيع الثاني ينادي الطفل أمه ثانية قائلاً: يا أماه أن جائع فأعطيني خبزاً. فتجيبه الأم: ليس لدي خبز يا ولداه.

وفي الهزيع الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويضعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق، أما الموت فيظل سائراً محمداً إلى الشفق البعيد".¹⁰

من الملاحظ في هذا النص أن جبران يتفاعل مع التراكيب بما تقتضيه المعاني، وبما يتطلبه الموقف الشخصي من الأوضاع السيئة في سوريا. فإيراد التراكيب في أسلوب الجملة الفعلية، يكون غالباً دلالاً على تقرير الأحداث التي جرت في بلده، مع دلالاته على تجددتها وتكرارها.

ونجده يتحدث عن الموت القاسي في بلده في نفس المقال، ويريد دوامه وثبوتها، ووجوده بين أهالي سوريا، ويورد التراكيب في أسلوب الجملة الإسمية، حيث يقول: "في ظلام الليل نصرخ ونستغيث، وخيال الموت منتصب في وسطنا، وأجنحته السوداء تخيم علينا، ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا، أما عيناه الملتهبتان، فمحدثتان إلى الشفق البعيد".¹¹

نلاحظ في هذا النص أن جبران يعتمد في إيراد التراكيب على الجملة الإسمية اعتماداً تاماً تتلاشى معه الجملة الفعلية، ويتلاشى معه ما تحمله من عرضية الحدث وتجدد، يحل مكانه ثبوت الحدث ودوامه الذي يستفاد من الجملة الإسمية. ويبدو من اختيار لهذا النمط من التركيب، أنه يريد أن يؤكد إثبات الموت ووجوده بين السوريين، فاختار الجملة الإسمية لإيصال هذه المشاعر إلى الملتقي، فأتى بأسلوب الجملة الإسمية. لأن الجملة الإسمية هي التي تدل فيه المسند على الدوام والثبوت، أو التي يتصف فيها المسند إليه اتصافاً ثابتاً غير متجدد. ولعل ذلك الكلام يفهم من كلام القزويني، حيث يقول: وأما

كونه، يعني المسند فعلا (في صورة الجملة الفعلية) فالتقيد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يكون مع إفادة التجدد، وأما كونه اسما (في صورة الجملة الإسمية) فلإفادة عدم التقيد والتجدد. ونرى الكلام نفسه عند عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز. ومن الأمثلة البارزة لتوظيف الجملة الفعلية في رسم المشاعر القلقة، والعواطف المضطربة، نقرأ النص التالي لجبران، " من وراء جدران الحاضر سمعت تسايح الإنسانية، سمعت أصوات الأجراس تهز دقائق الأثير معلنة بدء الصلواة في معبد الجمال، أجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر، ورفعها فوق هيكل المقدس، القلب الشري. من وراء المستقبل رأيت المدينة قد اندثرت، ولم يبق من آثارها غير ظلل بال يخبر الرجال باندثار الظلمة أمام النور، رأيت الشيوخ جالسين بظل أشجار الحور والصفصاف، وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون أخبار الأيام، رأيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملن الأعمار، ويترنمن بأناشيد أوحتها الغبطة والمسرة.

رأيت الإنسان قد علم أنه حجر زاوية المخلوقات، فترفع عن الصغائر، وتعالى عن الدنيا. من وراء جدران الحاضر، على مسرح الأجيال الآتية، رأيت الجمال عريسا، والنفس عروسا، والحياة كلها ليلة القدر".¹²

هذا القول بزوال المدينة والحضارة الموجودة، في هذا النص يكشف عن اعتقاد جبران وإيمانه بأن الحضارة الإنسانية شرقا وغربا لم تحقق إنسانية الإنسان، ولم تقم على أسس متينة بل زالت لأنها قامت على بؤس الإنسان وعذاب المستضعفين، ونجده يحلم بالغد المشرق حيث يحقق الإنسان نفسه، ويثبت كل أمانيه، وستصبح الحياة كلها ليلة القدر.

ولرسم هذه المشاعر والعواطف اختار جبران أسلوب الجملة الفعلية التي تنبئ عن اضطرابه، وانفعاله وقلقه، كما تعطي تلك المشاعر والعواطف صفة التجدد الاستمرار. وكذلك نلاحظ في هذا النص توارى الجمل الإسمية مما يبعث الحركة داخل النص نتيجة للصراع بين عواطفه تجاه المستقبل المستنير وحاضره الذي يئس منه، حيث أبعد هذا الصراع من صفة الإثبات والدوام. وكذلك كثرة القلق والاضطراب دفعت جبران إلى المزوجة بين الأفعال الماضية والمضارعة معا، ليجمع لنا الأحداث المستقبلية، التي يحلم بها جبران بين اليقين والشك في الوقوع والحدوث.

الجملة الإنشائية:

نجد عند جبران الكثير من النماذج في مختلف الأشكال النثرية والتي أوردناها سابقا كانت أساليب خبرية، سواء أكانت على شكل جملة فعلية أو اسمية. ولكن ثمة نمط آخر نجده عند جبران حيث يرسم مشاعره في أسلوب إنشائي بحت، وكأنه يجعل الإنشاء محطات للحركة النفسية التي تود الاستراحة من ثقل الأرزاء، أو العباء الجسام. وهذا ما نلاحظه في النص الذي يرسم فيه مشاعره وقت قدوم الموت.

يقول: "أشعلوا الشموع، وأوقدوا المباحر حول مضجعي، وانثروا أوراق الورد والنرجس على جسدي، وعفروا بالمسك المسحوق شعري، وأهرقوا الطيوب على قدمي، ثم انظروا واقروا ما تخطه يد الموت على جبتي، امسحوا الدموع يارفاقي، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الأزهار تيجانها عند قدوم الفجر، وانظروا عروسة الموت منتصبه كعمود النور بين مضجعي والفضاء، أمسكوا أنفاسكم، واصغوا هنيئة، واسمعوا معي حفيف أجنحتي البيضاء".¹³

ثم يستمر في هذا الأسلوب، حتى نراه يزواج بين الأمر والنهي في نفس المقال- جمال الموت- فيقول: "لا تندبوني، يا بني أمي، بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة، لا تغمروا صدري بالتأوه والتهد، بل ارسموا عليه بأصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح. لا تزعجوا راحة الأثير بالتعزيم والتكهنين، بل دعوا قلوبكم تهلل معي بتسيحة البقاء والخلود. لا تدرفي الدموع، يا بنة الحقول، بل ترنمي بموشحات أيام الحصاد والعصير. ولا تلبسوا السواد حزنا على، بل ترددوا البياض فرحا معي. لا تتكلموا عن ذهابي، بل أغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغدا وبعده".¹⁴

قد عرفنا سابقا أن جبران كان يحن للموت لما يرى فيه من الخلاص لكل حي من أثقال الحياة. وكان لا يكره الموت إلا في ظروف خاصة قد أشرنا إليها في الفصل الأول من هذه الدراسة، والآن عندما نقرأ هذا النص، نجده يتمحور حول قدوم الموت ومجيئه، ومدى وقعه على نفسه، ولعل اختياره لأسلوب إنشائي ينبئ عن فرحة جبران وبهجته بالانعتاق من وطأة الحياة المادية بمجئ الموت، ولذلك نجد عاطفته تلونت بألوان الفرح، والسرور، ونراه يأمر ببث الرياح الجميلة لحين، ويمنع الناس لحين آخر من الجزع والفرع وإظهار الحزن على موته. فإيراد التراكيب هنا في أسلوب إنشائي لم تأت لغوا، بل هي تؤكد

عاطفة الرحبية التي لم يتخللها شك ولا ريب، ولم يعكر صفوتها حلول الموت، كما هو شأن الجملة الإنشائية حيث لا تحتمل الشك والريب والكذب، وبإمكاننا أن نقول إن وضع التراكيب في صورة الإنشاء كان له هدف معين وقد حصل بالطبع.

إلى هنا قمنا بتقديم التراكيب وقيمتها الفنية التي وردت في شكل جملة خبرية كانت أو إنشائية، وسنتطرق الآن لإبراز بعض الأساليب والأبنية، من النداء والاستفهام والتوكيد وغيرها، في بناء التراكيب والجمل، والعبارات عند جبران، وسنحاول أن نكشف عن الدلالات والإيحاءات والإشعاعات التي تحملها تلك الأنماط، وكذلك نرصد العلاقة النفسية بين الكاتب وتلك الأساليب.

أسلوب النداء:

من الأساليب البلاغية التي كثر استخدامها في اللغة العربية عامة، والشعر والنثر الفني خاصة، وهو على حد قول الدكتور أبو موسى " من أكثر فنون الكلام تصرفاً في الأغراض والمواقف، فكما نودي الحي العاقل الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادي، نودي الحي العاقل الذي يجاوز امتداد الصوت، وكذلك نودي الحي غير العاقل من النوق والطيور والوحش وغيرها، كما نوديت مشاهد الطبيعة من برق وسحاب وأقمار وشموس وأشجار، كما نوديت أحوال النفس وعواطفها من حب وبغض ومرارة ولذة، إلى آخر ما تصرف فيه اللسان في هذا الباب، ووراء كل ذلك أغراض وأسرار ومذاقات، ودرسه باب جليل من أبواب معرفة الأدب والذوق"¹⁵

وبعد إمعان النظر في أدب جبران أن هذا الأسلوب يكثر لديه، وإنه قد سار سير الأدياء الآخرين. فقد استخدم أسلوب النداء لأغراض شتى كما وظفه الآخرون من الشعراء والأدياء من كل جيل. فإنه قد نادى من خلال مقالاته الإنسانية جميعاً إلى حياة الحب والسلم، ونخص بندااته المليئة بالعدوثة والحب القلبي للشعب السوري، محاولاً أن يدعوه إلى الوعي في أسلوب وعظي تلقيني، ولعل السبب في ذلك تأثره بالكتاب المقدس. وكذلك نادى في مقالاته مشاهد الطبيعة من الليل والعواصف والبحار والسواقي والأودية والأشجار والأزهار، ولعل السبب في ذلك ميله إلى الاتجاه الرومنسي. وسأدرس هنا ما اختاره من هذا الأسلوب عند ما يتحدث عن قضية الموت والحياة، وسأحاول أن أكتشف

عن تلك الدلالات الخفية والأغراض السرية، التي تملكها تلك الأساليب من ناحية، ولها علاقة قوية بعواطف الكاتب ومشاعره من ناحية أخرى.

والنداء ولعل ما فيه من مد للصوت من خلال المقطع المتوسط المفتوح (يا)، وما يحمله هذا المد من تغريغ لشحنة الحزن والألم المعتلجة في النفس.¹⁶ كان سببا وراء ظهوره في مواقف يتحدث فيها جبران عن عواطف الفقراء، والمساكين أو الشعراء تجاه الموت. بالإضافة إلى ما يقوم به النداء من وظيفة دلالية، وهي التفاعل بين المنادي والمنادى عليه تفاعلا يبعث على إيجاد حركة يكسر بها الأديب خوف الموت، ووحشة الحزن والألم، نلمس هذا التفاعل في محاولة جبران الاستئناس بالموت وقت احتضاره إلى شاعر غريب بعيد عن الناس وعن حياتهم المادية. يقول: "تعالى، أيتها المنية الجميلة، فقد اشتاقتك نفسي، اقتربي وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرهما، تعالى، أيتها المنية الحلوة، وأنقذيني من بين البشر الذين يحسبونني غريبا عنهم، لأنى أترجم ما أسمعته من الملائكة إلى لغة البشر، أسرعى نحوي، فقد تخلى عني الإنسان، وطرحني في زوايا النسيان، تعالى إلي، أيتها المنية العذبة، وخذي، فأولاد بجدتي لا يحتاجون إلي.... أسرعى وعانقيني، يا حبيبتي المنية."

من الملاحظ في هذا النص الرائع أن النداء تكرر فيه حتى أصبح لانص صرخات متلاحقة تخفف شدة وطأة الوحشة المنبثقة من الحياة المادية، والتي دفعته إلى أن يبحث عن الأُنس المفقود في الموت، فجعل يناديه بكلمات جميلة، وعبارات عذبة، حيث يصفه مرة بالجمال "أيتها المنية الجميلة" ومرة بالحلوة "أيتها المنية الحلوة" وتارة بالعذوبة "أيتها المنية العذبة" ولا يكتفي بهذه الأوصاف بل يجسد الموت أمامه، ويتخذ حبيبا يطلب معانقته "وعانقيني يا حبيبتي".

كذلك نتعرف على ما وراء هذا النداء المكرر من ذهول، جعل لكلام مذاقا حسنا، وكشف عن قلب مستفز مكروب أنقلته وطأة الفجع الذي ناله من الغربة القاسية، فتوارت في رؤيته حدود الأشياء. وصار ينادي ما لا ينادى، ويسائل من لا يجيب، ينادي الموت ويلح في نداءه، كما يوحي النداء هنا إلى مدى الحنين الطاحن إلى الموت لأجل الإحساس الطاعني بالغربة. وقد رسم هذه الغربة بعبارة توحى إلى مدى وقعها على نفسه، وتنبئ عن الشعور بعدم إقبال الناس عليه واستغنائهم عنه.

كذلك يرسم جبران في مقاله "موت الشاعر حياته" مشاعر عشاق يشتهي من عكس الأمور وقلوبها عليه. فالحب الذي كان أسمى من كل أمر وأرفع من كل شيء، أصبح شيئاً تافهاً وأمرًا غير ذي بال، وحلت مكانه أمور أخرى، ولم يبق المجال للمحبين في هذه الحياة، فجعل ينادي الموت، لأن الموت هو الذي ينقذ الإنسان من أثقال هذه الحياة، يجمع بين المحبين في الحياة الأبدية، فبدأ يناديه، ويستغيث به. يقول: "تعال ياموت، أنتقذني، فالأرض التي تخنق أشواكها أزهارها لا تصلح للسكن، هلم وخلصني من أيام تخلع الحب عن كرسي مجده، وتقيم الشرف العالي مكانه، وخلصني ياموت، فالأبدية أجدر بلقاء المحبين من هذا العالم، هناك ياموت، أنتظر حبيبي، وهناك أجمع بها".¹⁷

من الملاحظ في هذا النص أن الكاتب وجد في النداء سبيلاً إلى إيصال رسالة مفعمة بالألم، مشبعة بالإحساس بالضعف واليأس العميق من الوصول إلى حبيبه، كما نلمس من وراء هذا النداء توجعاً أذهل الكاتب فأقبل على الموت ينادي وينوح، واستعذب النداء وهذا النوح. ومن أجل ذلك كرر النداء.

وقد يحتمل النداء في طياته صورة توسل ومناجاة، كقول جبران على لسان فتى يقبل على الموت. "هاأنذا، أيها الموت الجميل، اقتبل نفسي، يا حقيقة أحلامي، وموضوع آمالي، ضمني يا حبيب نفسي، فأنت رحوم، لا تتركني ههنا... كم طلبتكم فلم أجدكم، وكم ناديتكم ولم تسمع. قد سمعني الآن، فلا تقابل شغفي بالصدود، عانق نفسي، يا حبيبي الموت".¹⁸

من الملاحظ في هذا النص أن سياق النداء هذا حافل بالجيشان والأسى، والحنين وفرط الذهول، وتوهم أن الموت هو السبيل الوحيد إلى الانعتاق من أغلال الحياة المادية الشاقة، التي لا يتوفر فيها للفقير ما يتمنى قلبه. ولذا نراه يتضرع أمام الموت ليأخذه وينجيّه من قهر هذه الحياة.

كذلك نلاحظ هنا حرص الكاتب على محاولة تحويل الموت إلى كائن حي يحس ما يحسه، وكذلك محاولة مخاطبته للموت، وخلق الإحساس الإنساني فيه، فيبكي لأوجاعه، ويحن لحنينه، ويسمع أقدس عواطفه، وأنبل اختلاجاته، وفي الأخير مساعنته في الخلاص من آلام تلك الحياة.

أسلوب الاستفهام:

إذا كان جبران يدرك أثر الكلمة، ودور الاختيار اللغوي فإنه يدرك أيضا أن للأسئلة طاقة كبيرة في فتح النص حواريا ودراميا، فضلا عما يحمله التنوع الصياغي لها من أثر جمالي في المتلقي، وهو ما تعبر عنه القراءة البلاغية- بالأعرض- أي المعاني التي يضيفها أسلوب الاستفهام إلى تركيب الجملة من حيث دلالتها، وقد عدد بعض البلاغيين أربعين غرضا ومعنى للاستفهام غير معناه الأصلي.¹⁹

وبعد إمعان النظر في أدب جبران نرى أن الأسلوب يتولد من خلال تأملاته في الحياة والموت، وتقلبات الحياة به، وكذلك في الحياة المدنية والحياة القروية الطبيعية، حتى تنخفض درجة التأمل لديه إلى أدنى المستويات، فنجدته يتأمل في حياة الفقير، وحياة الغني، وكذا يتأمل في حياة المساكين والرعايا، وحياة الأثرياء والملوك، لأجل هذا كان للاستفهام وجود بارز في أدبه، ولعل هذه التأملات دفعته إلى كثرة التساؤلات ليكشف عن حالة الحيرة والقلق والتوتر التي يعيشها جبران كما يكشف عن إحساسه بافتقاد الإيمان واليقين حول الحياة المقبلة. فنجدته يجري التساؤلات حول مصير الإنسان الذي يعيش في بلاد سوريا مضطهدا مقهورا وسط مخالب الجبابرة.

"ما عسى أن يسير إليه العالم بعد أن تنتهي الجبابرة من صراعها؟

هل يعود القروي إلى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى؟

هل يقود الراعي مواشيه إلى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها مناهل يمتزج ما

وؤها بنجيع الدماء؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين، ويردد الشاعر قصائده أمام

كوكب حجبت بالدخان، وينغم المنشد أغانيه في ليل عانقت سكينته الأهوال؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بهدوء أغاني النوم وهي لا ترتجف وجلا

مما سيجلبه الغد؟

وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستر بقميصه أعضائها المكلومة؟

ليت شعري، هل يعود نيسان إلى الحقول." ²⁰

من أبرز ما نلمسه في هذا النص المؤثر، هو قلق متزايد توتر متصاعد مما يتقرب

جبران حدوته في شأن بلاده سوريا، وما سيحل بأهلها. "ما عسى أن يصير إليه العالم بعد

أن تنتهي الجبابرة من صراعها؟" ولم يتغيب هنا حبه البالغ الطبيعي للحياة القروية

السادجة، فإنه لم ينس الطبيعة بل رسم الفكرة من خلالها "هل يعود القروي إلى حقله فيلقي البذور حيث زرع الموت جماجم القتلى؟ كما لم ينس الحياة الطبيعية السادجة "هل يقود الراعي مواشيه إلى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء".

وكذلك ما نلاحظه هنا، هو: أن الاستفهام في هذا النص ينبع من حالة التأمل التي تفضي إلى الحيرة والقلق والتوتر وافتقاد الأمل إلى أقصى مدى من عودة الحياة الطبيعية التي كان جبران يتمناها. هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بهدوء أغاني النوم وهي لا ترتجف وجلا مما سيجلبه الغد؟.

وتتفرع تلك الحالة بعد ذلك في معان جزئية تدل على الحسرة أو الاستنكار. ويبرز التحسر واضحا تظهر عليه علامات الانكسار، وتبرز انفعالية ذات أثر عميق، حيث يبدو منكسر القلب، منتشر العاطفة، معدوم التفاؤل، مفقود اليقين، حول أوضاع سوريا. "وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستتر بمقيصه أعضائها المكلومة؟ ليت شعري، هل يعود نيسان إلى الحقول؟

قد أشرت في بداية هذا الموضوع أن الاستفهام يجعل النص دراميا وحواريا. ولذلك يتخذ الكاتب وسيلة للتعبير عن مشاعره على شكل حوار يجري فيه التساؤلات دون أن يبحث في أجوبة عما أثارته تلك التساؤلات. ولعلنا نجد أنفسنا أمام نصب وافر للاستفهام في أعمال جبران من هذا النوع، وسأكتفي بنص أجرى فيه الحوار بينه وبين "الجنية الساحرة" - الصورة الرمزية للحياة- يخاطبها ويتساؤل: "قد استرددت حيرتي فهل ترضين بي رفيقا حرا، يحدق إلى وجه الشمس بأجفان جامدة ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة؟ لقد فتحت جناحي ثانية فهل تصحبين فتى يصرف الأيام متنقلا كالنسر بين الجبال، ويقضي الليالي رابضا كالأسد في الصحراء؟ هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديما ويأباه سيذا؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنه لا يذوب؟ هل تتراحين إلى ميول نفس ترتعش أمام العاصفة ولكنها لا تنهصر، وتثور مع الزوابع ولكنها لا تقتلع من مكانها؟ هل ترضين بي صاحبا لا يستعبد ولا يستعبد؟"²¹.

من أبرز ما نلمس في هذا النص أن جبران يعرض سلسلة من الأسئلة وي طرحها

على الحياة المرموزة بالجنية الساحرة، ويعبر من خلالها عن مشاعره واتجاهاته، تجاه الحياة الشخصية، فقد عرفنا خلال هذه الدراسة، أن جبران لم يكن يرضى بحياة العبودية والخضوع أو الحياة التي تميت أو تمحي كرامة الإنسانية، حتى أنه لم يرض بحب يستعيد الإنسان. لذلك أراد أن يكون عاصفة تقتلع كل شيء لتستنبت كل جديد، كما أراد أن يكون نارا تحرق كل قديم لتولد كل جديد. وعبر عن هذه الأفكار بأسلوب استفهامي جعل الموقف دراميا حواريا.

وكذلك تراه يبقى متحيرا متساؤلا يبحث أسئلة ينبثق منه القلق والتوتر في النص التالي:

"أهكذا تمر بنا الليالي؟ أهكذا تندثر تحت أقدام الدهر؟ أهكذا تطوينا الأجيال؟ ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطه على صحفها بماء بدلا من المداد؟
أ ينطفئ هذا النور، وتزول هذه المحبة، وتضمحل هذه الأمانى، أيهدم الموت كل ما نبنيه، ويذري الهواء كل ما نقوله، ويخفي الظل كل ما نفعله؟ أ هذه هي الحياة؟ هل هي ماض قد زال واختفت آثاره، وحاضر يركض لا حقا بالماضي، ومستقبل لا معنى له إلا إذا ما مر وصار حاضرا أو ماضيا؟ أتزول جميع مسرات قلوبنا وأحزان أنفسنا دون أن نعلم نتائجها؟

أهكذا يكون الإنسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء، ثم تمر نسيمات الهواء فتطفنه ويصبح كأنه لم يكن".²²

حاول جبران في هذا النص أن يكشف عن مرارة الإحساس بضيق ما يملك الإنسان من قدرات وإمكانيات حتى المشاعر والعيوف في هذه الحياة. "أينطفئ هذا النور، وتزول هذه المحبة، وتضمحل هذه الأمانى، أيهدم الموت كل ما نبنيه، ويذري الهواء كل ما نقوله"، واختار أسلوب الاستفهام لهذا الغرض، ومن الواضح أنه دفع بالاستفهام من الاستعمال الحقيقي إلى فضاء العجب والدهشة. العجب من زوال الحياة بدون الاحتفاظ بأي أثر أو التسجيل لأي ذكرى له، والدهشة من العجز عن فهم هذه الحياة. "فهل هي ماض قد زال واختفت آثاره، وحاضر يركض لا حقا بالماضي، ومستقبل لا معنى له إلا إذا ما مر وصار حاضرا أو ماضيا؟ كذلك تصعد نبرة التحسر لديه عند ما يرسم صورة فناء الإنسان بفناء حياته، في أسلوب استفهامي بليغ رائع، " أهكذا يكون الإنسان

مثل زبد البحر يطفو دقيقة على وجه الماء، ثم تمر نسيما الهواء فتطفئه، ويصبح كأنه لم يكن.²³

وحيث بحثنا عن الاستفهام وتوظيفه في آثار جبران وأعماله، وجدناه يوظف هذا الأسلوب لأغراض بلاغية شتى، دون توظيفه في المعنى الحقيقي فحسب. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الثراء المعنوي والطاقة الدلالية الكبرى لهذا الأسلوب اللغوي. وبالتالي يدل على قدرة الكاتب، وإمكانياته في إنشاء أفق لغوي واسع ممتع إلى أبعد الحدود لدى المتلقي. كما يدل على مغادرة ظاهر البناء اللغوي إلى بواطنه وإيحاءاته وظلالاته. ولا شك أن آثار جبران تحفل بتلك التساؤلات التي تنقل بالنص من المستوى الرومانسي المفعم بالحزن والآسى إلى جنبات الفلسفة. إن جبران اتخذ الاستفهام وسيلة أسلوبية للتعبير عن حاجة وجدانية نفسية من الشكوى، والتحسر والتمني وما إلى ذلك.

النتائج: قد وصلنا من خلال هذا المقال إلى بعض نتائج، نورد مجملها فيما يلي:

- نجد أن جبران يعتمد كثيرا ما على ما يدعوه كلمات قيمة أي الكلمات التي تمثل مفاهيم أو مشاعر تعد ذات قيمة في كل زمان ومكان.
- نرى أنه حاول تحويل اللغة الأدبية إلى سياق جديد يناسب الزمن المعاصر عن طريق إدخال إيقاعات أكثر بساطة وليونة من إيقاعات الأدب العربي الموروث.
- نجد أنه يتحرى الدقة التامة في اختيار الكلمة الموحية، ومما يؤخذ عليه أنه أكثر في النعوت، فهو أحيانا يأتي بصفتين أو ثلاث لكلمة واحدة، وبه تفقد الكلمة روحها وإيقاعها.
- نرى أنه ابتكر في أعماله أسلوبا جديدا طريفا في النثر حتى قيل: إنه شاعر في منثور له لا في منظومه. وقد استخدم جميع الأساليب حسبما طلب منه الموضوع وحسبما اقتضته حالته النفسية.
- لا نستطيع أن نقول إن التركيب الخاص يكثر لديه في مقابل أي تركيب آخر، لأن هذا مجال الدراسة الإحصائية. لكننا نريد أن نوصي الباحثين في مجال الأدب العربي بدراسة أسلوب خاص- كالاستفهام، أو النداء- في أعمال جبران خليل جبران.
- وبعد أن أكملنا هذا المقال المتواضع بفضل الله تعالى نوصي معلمي البلاغة العربية في

الكليات والمعاهد والجامعات بالاستفادة من مثل هذه الدراسات التي تقدم قواعد البلاغة وأصولها مطبقة وممثلة، وباستخدامها وتوظيفها في تدريس البلاغة العربية.

الحواشى

- ¹ - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدياء، ط/1، 1981م دار الغرب الإسلامي، د، ت، ص: 129.
- ² - عبد المالك مغشيش، الأشكال الأدبية في النثر المغربي، في العهد العبيدي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر- باتنة- السنة الجامعية، 2005م، ص: 192.
- ³ - حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الجيل، بيروت- لبنان، ص: 241.
- ⁴ - سلى الخضراء، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي، ص: 135.
- ⁵ - جبران، المجموعة الكاملة لمؤلفاته، تحقيق وتقديم، سميع إبراهيم بسيوني، مكتبة جزيرة الورد، ص: 45.
- ⁶ - جبران، العواصف، دار العرب للبستاني، القاهرة- مصر، ص: 260.
- ⁷ - المصدر السابق، ص: 261-62.
- ⁸ - عبد المالك مغشيش، الأشكال الأدبية في النثر المغربي، ص: 197.
- ⁹ - د. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ط/2، دار الرائد العربي، 1986م، بيروت، ص: 41.
- ¹⁰ - جبران، العواصف، ص: 164.
- ¹¹ - المصدر السابق، ص: 164.
- ¹² - جبران، دمعة وابتسامة، تقديم وتعريف، د. جميل جبر، دار الجيل بيروت- لبنان، ص: 157.
- ¹³ - المصدر السابق، ص: 278.
- ¹⁴ - جبران، دمعة وابتسامة، ص: 282.
- ¹⁵ - أبوموسى، دلالات التركيب، ط2، مكتبة وهبة - مصر، 1987م، ص: 262.
- ¹⁶ - صلوح بنت مصلح السريحي، الصورة في شعر الرثاء الجاهلي، رسالة مقدمة إلى كلية التربية للبنات بجدة، للحصول على درجة الدكتوراة في الفلسفة في اللغة العربية، لعام 1998م، ص: 203.
- ¹⁷ - جبران، دمعة وابتسامة، ص: 57.
- ¹⁸ - جبران، دمعة وابتسامة، ص: 207.
- ¹⁹ - معجم مصطلحات البلاغية العربية وتطورها، محمد عبد المطلب، المجمع العلمي، العراق، 1983م، 181/1.
- ²⁰ - جبران، العواصف، ص: 183-184.
- ²¹ - جبران، العواصف، ص: 97.
- ²² - جبران، دمعة وابتسامة، ص: 80-81.
- ²³ - المصدر السابق، ص: 81.